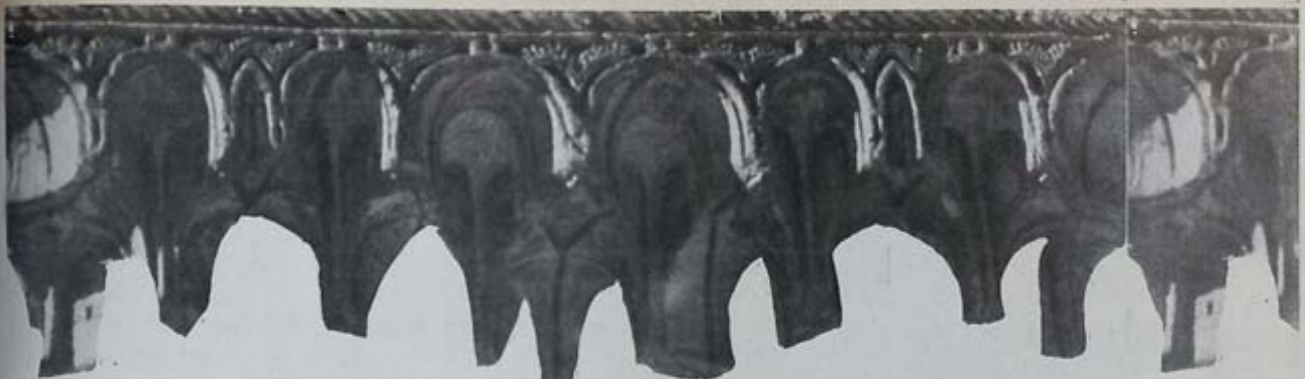




ويسألونك عن الأندلس

تاريخ

قل : إن وطن العرب كله أندلس ، وملوك الطوائف مازالوا يتناحرون في كل مكان ، والفتنة قامت عند مقتل الخليفة عثمان . قامت ولم تقعد بعد . وعلى يد كل منا شيء من دم ذى النورين ، لأن الذين قتلوه اطفأوا في ذلك اليوم النورين فعلا : نور العدالة ونور المحبة .

أثناء عمل في أسبانيا كانت متعنى الكثير زيارة الأندلس - جنوب أسبانيا - والإلمام بقواعد الحضارة الإسلامية فيه : قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة ، وما يتصل بها شألا بشرق من أمثال الرية ومرسية وبنيعة .

وتعود الكثيرون من رجالات العرب أن يزوروا أسبانيا لأصحبهم في رحلة الأندلس وأحدثهم عن الآثار والتاريخ والمجد الذى كان ، ثم عصفت به تصارييف الزمان .

ولكنة ما حكيت الحكاية أصبحت كعازف الكمان في مطاعم البندقية ، يقترب من المواليد وقبائله يساره وقوسه يمينه ، ويعرف للطاقعين من العشاق والمحبين نفس اللحن ، يعرفه كل ليلة عشرات المرات من سن العشرين إلى السبعين .

ولكن عازف البندقية يعرف لأهل المجرى وأهبة ، أما أنا فقد كنت أردد نفس اللحن على أذان كثيرة لأعرف المجرى أو أهبة ، فقد كانت غالبيتهم من عيلة القوم ، أهل سياسة وجاه وألقاب ، فيهم وزراء وروساء ووزراء ، وصاحب جلالة ، أعدت له سفارته قبل مجيئه كل مطالب الزيارة من أماكن الميت وسيارات ومقابلات ، ووضعت في البرنامج كأننى جزء من لوازيم المتعة لجلالته .

وكنيت ذات مرة وحيدى في غرناطة . حملنى الضيق من عرب اليوم إلى الناس الأوس عند عرب الأوس . حقا إن عرب الأوس ليسوا أحسن من عرب اليوم ، ولكن الأولين على الأقل لقوا عقابهم وهم يستحقون العطف والثناء ، والأموال دائما لأفضل لأنهم أموات .

كنت في فندق واشتغل أربابا وأنا أعلم لأنه يطل على الحمراء ثم إنه متسرب إلى رجل نجده جميعا ، فقد كان سفيرا للولايات المتحدة في مدريد ثم أجبره سحر الحافظ الأندلسى ، فاستأفل واعتزل في غرناطة ، وأتى « أقاصيص الحمراء » ثم ازدادت فتته بتاريخ العرب فكذب كتابا لطيفا عن الخلفاء الراشدين حماد « خلفاء حماد » .

لذا أنا أتأهب للخروج من الفندق ، إذا بالحافظ يصلصل ، وسفير



د. حسين مؤنس

دولة عربية على الطرف الآخر من السلك يقول : إنه حفر من مفرد في صحبة حفرة صاحب المعالي ، لا أدري وزير ماذا وإن معالي الوزير يبط من جناحه بعد ساعة لكي نشرف بصحبته في رحلة التاريخ والدموع .

وأنا أعرف أن أصحاب المعالي هؤلاء يحتشدون أن من لوازيم المعالي أن ينتظرها الناس ساعات حتى تهل عليهم بطمعتها البية ، ولما كنت قد شبت من تلك الطمعات وبهايتها فقد قلت للسفير :

- معطوة لابد أن أذهب الآن ، فأنا على موعد مع الأستاذ خيسوس برمودت كبير الألوين في الحمراء لأنها تدرس معا نقوش سقف قاعة السفراء ، قلت وإني سأكون في تلك القاعة طول الصباح ، ولشرف معالي الوزير عندما يشاء .

- ولكن معالي الوزير يجب أن تكون في معية . - ياسيدى إننى لأحب أن أكون في معية أحد ، ونحن في مصر بالذات لنا بؤرة لتخلص من « المعية الحديوية » ، و « المعية السلطانية » ، والمعية الملكية ، وكل معية على وجه الأرض . أنا في قاعة السفراء ياسيدى السفير فطفلوا حين نشامون .

ومعالي الوزير الذى كان ينبغي أن يبط بعد ساعده وصل . بعد ثلاث ساعات . وصل الثانية عشرة . كما في قاعة السفراء التى تسمى أيضا بقاعة فرش ، إنها من إنشاء السلطان محمد العتي بالله لثمن سلاطين غرناطة وأبيه أبى الحجاج يوسف من إسماعيل ساج سلاطين غرناطة . الأب حكم خمس سنوات هجرية ٧٥٥ - ٧٦٠ (١٣٥٤ - ١٣٥٨) ميلادية وابنه الذى أنشأ هذه القاعة الشيعية حكم سنة هجرية واحدة ٧٦٠ - ٧٦١ (١٣٥٨ - ١٣٥٩) ميلادية . هذان الأثنان لم يمتعها يوم من السعادة لأن بيت الشك في غرناطة كان مثل سقف الأعلى . كل أنفى تنوس الأخرى تفصل برأسها إلى الفراء .

ولكن قاعة فرش هذه قطعة من الفن العرفى الرائع إنها قاعة فسحة جدرانها كلها محلاة بأقاريز من الزخارف

والكتابات العربية من كل شكل ولون يمكن تصوره جانب القاعة المطل على نيل الحمراء كله شرفات مزدوجة . السقف الذى نقف تحته أروع سقف نقشه فنان مسلم . إنه يتألف من فراغ أزرق في الوسط يحيط به نطاقات من الوحدات الزخرفية ، كل واحدة لها طابعها وشكلها ولونها . أتتري من أين استلهم الفنان العرفى هذا التصور للسقف ؟ من سورة الملك أو سورة تبارك وهى السابعة والسون من سور القرآن الكريم .

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .

الذى خلق سبع سموات طباقا . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور .

ثم ارجع البصر كرتين ينظف إليك البصر عما سوا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح .

وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير . (الآيات ١ - ٥)

فقد تصور الرجل السقف وكأنه قبة السماء . ول وسط القبة ترك فراغا أزرق بلون السماء ، وتركه دون رسم لأنه رمز الله سبحانه والله لا يرسم ولا يصور .

ثم أحاط ذلك الفراغ بنطاقات من المجموعات الزخرفية ، كل مجموعة تعتبر وحدة فنية قائمة بذاتها . وهذه النطاقات في مجموعها سبع ، هى - في تصوره - السماوات السبع ، فالنطاق الأول أو السماء الأولى

التيقة برب العرش هو نطاق الملائكة الأطهار الذين يعملون رسالات الله وأوامره إلى الأنبياء والرسل لكي يعملوها إلى الناس . والنطاق الثانى هو نطاق الملائكة الصغار الذين يحيطون بالملائكة

الكبار ويرب العرش ويسبحون به بكرة وأصيلا . إن عجى الدين بن عرقى ونفرا آخر من الصوفية يسمون أولئك الملائكة بالكرويين ، وقد سموا بذلك لأنهم في كرب متصل .

والكرب عند ابن عرقى هو التعب المبارك الذى تحسه الملائكة الذين لا يترققون عن التسبيح والصلوة .

هذا اللفظ « الكرويين » انتقل إلى الفن الأوربي ، فسموا به الملائكة الصغار . كالأطفال الذين تراهم بأجنتهم في لوحات

روبرت روزايلر وليوناردو دافنشى من أساطين أهل الفن في عصر النهضة الإيطالية . أخذوا التصور واللفظ ، فسموهم

Cherubim (كيسروبيى) وبالإجليزية

(والفرسية Cherubins)

وحارج هذا النطاق نطاق من خمس وحدات زخرفية كبيرة الواحدة منها تألف من عشرات النجوم ذات الأشكال العجيبة. هذا هو نطاق الأبياء الخمسة العظيم وهم: أولو العزم من الرسل، الذين ذكرهم الله سبحانه في الآية ٣٥ من سورة الأحقاف: «فأصبر كما أصر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم».

وهؤلاء الخمسة عندنا هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم.

وبل ذلك نطاق الأقطاب، وهم هنا أنا عشر قطبا، ويذهب بعض الصوفية إلى أن الأقطاب أربعة فقط.

وبعد ذلك نطاق الأبدال، وهم بدائل الأقطاب كلما ترقى قطب حل محل بدل. وهكذا إلى آخر الطوائف.

وله وضع الفنان هذه الطوائف على نحو لا يمكن للشياطين أن تغدسه إلى السماء السابعة. لأن الجهات والجهات الزخرفية يدر للناظر كأنها مصابيح ترجم الشياطين وتردها فأنت لا تجد بينها فرجات (أو فطور) وإذا تأملنا مرة بعد أخرى لرتد إليك بصرك حاسما وهو حير، وأنت مها تأمل في خلق الرحمن قلن ترى فيه من عذابات!

هذا السقف إذن قطعة من الفن وقطعة من الإيمان وهو قطعة واحدة من ألوف قطع الفن التي خلقها لنا

الفنان العربي.

ثم نجد من يلهج لسانه إعجابا بلوحات روبرت ورافاييل ويقول لك ساخرا: «أين هذا الشموخ من سلفاس الزخارف العربية الحالية من الحياة».

هؤلاء جميعا يقول: مكانكم باليوم، ولا تخوضوا لها لا تعرفون فإن زخارف الفن الإسلامي أشكاله الهندسية ومتحباته ونورياته (من ورق الشجر) أعمال فنية ذات أبعاد فنية لا تقل عا تخافون به من أعمال الآخرين.

ولكننا لم ندرس فنانا بعد حتى نخوض فيه.

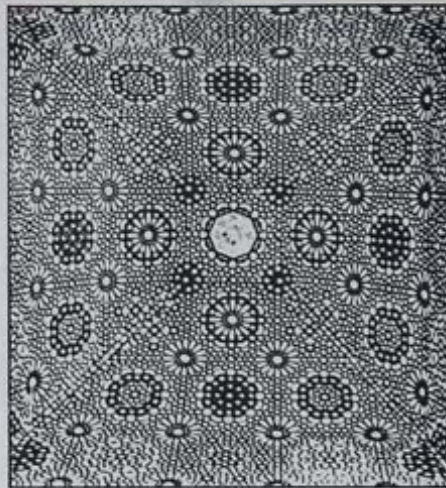
والفن الإسلامي الأسيل خالص صاف مجرد عن التجسيم فهذه الأشكال الهندسية والحطوط ذات الزوايا المضطعة وهذا التصرف المبدع في أشكال ورق الشجر، ورقة العنب خاصة، تنطق الدهن من أعفاله فيسرس مع الحال إلى مالا نهاية وقد قال أحد المفسرين في تفسير قوله تعالى في سورة الحديد: «هو الأول والآخر، إنه الأول بلا بداية ونعنها، والآخر بلا نهاية تراها».

وهنا يقرب الفن الإسلامي من الله سبحانه، وقلن ذلك بتصوير لبرناردو دافنشي شه سبحانه على سقف الصل السكستينية في صورة رجل بلا ملابس.

ولم يكن قد بقى من الوقت عندما وصل صاحب المعالي إلا ساعة زمن تنتهي بعدها الفترة الصباحية، فبق الساعة الواحدة ظهيرا ما الخروج، واستكثر معاليه ذلك وعده لفة ذوق وانعدام لياقة، لما هكذا تعامل المعالي وأصحابها.

ولكننا خرجنا في النهاية لأن الوزير الفتح آخر الأمران معاليه تنتهي عند حدود بلده، أما خارجها فأقصى ما يحصى عليه هو لقب اكسلانس، والسفير بطبيعته اكسلانس، ومع الاكسلانس ذهبا لتناول الغداء في مطعم جميل يقع في طرف حدائق جنة العريف الملحقة بقصور الحمراء. وعندما استقرنا المقام أخذ الاكسلانس يحول بصره في المنظر الجميل أماما: سلع تل الحمراء تغطيها الخضرة وأسفل التل يجري نهر غرناطة وهو نهر هداه في حقائق عتيق يله ثل آخر هو ثل البازين، ونظر في خريطة أمامه وقرأ بصوت «كوبستال نشايت» وسأل: «ما معنى هذا؟»

— الكوبستا ياسيدي مصطلح إسباني دخل مصطلح الجغرافية العالمية، ويراد به الصعود إلى الطبيعة والجغرافيون انصربون يقولون: «كوبستا الصحراء الشرقية»، والمصعد إلى قمة جبل موريا وهي قمة الصحرة في القدس يسمى كوبستا القدس، أما النشايت فهو لفظ عرق محرف، وأصله الجباس أي صانع الجبس، لأن أهل غرناطة كانوا يصفون في



سقف قاعة السفراء في الحمراء. الوحدات الزخرفية كلها رموز لثعان إسلامية.



قاعة السفراء من الخارج مصورة من بين الرخنان. هنا الخضرة وزرقة السماء والماء والعقود المعقدة تزلف وحدة فنية.



منظر عام لغرناطة أخذ من تل الحمراء. أمامك نهر قرطبة ثم حى البازين.

الإمالة، كما تفعلون في لبنان فكما يفلو بعضهم البيرة بدل القاهرة. كانوا في غرناطة يقولون ييب الزمة يبريدون باب الرملة والحبس يبريدون الحبس ومن هنا أتى لفظ نشايت.

— ومن هو هذا الحبس هذا حتى يطلقون اسمه على موضع جغرافي؟ — كان ياسيدي رجلا يعمل في الحبس والباء أي أنه كان مغاولا في مصطلحات الحديث. ومازالت داره المسماة بيت الحبس (لاكاسا دل نشايت) باقية إلى اليوم، وفيها تقوم مدرسة الأبحاث العربية في غرناطة.

ويبدأ أنا أنكم مرت حساء غرناطية مشمقة القوام. فانتصرفت إليها عينوا الاكسلانس حتى خرجت من الباب، فعاد الوزير إلى وقال: — كل هذه البلاد كانت لنا؟ ترى من المستول عن شياع الأندلس؟ — معاليكم بالفهم. — فذعر الرجل وقال: — أنا، سبحانه الله، وما دعل أنا في ذلك؟

— عيتك يا اكسلانس تركت العلم والجد، وذهبت في رحلة مع الأندلسية الحمراء من الباب إلى الباب.

— هذه تغاريج يا أسناد، والحياة ليست كلها جد أو سعة ثقيلك وسعة لريك، ماهيك بتقولوا في مصر.

— أجيلى ياسيدي يظنوا هذا يصحح، ولكن وزراء الأندلس زعماء معاليكم، كانوا يحفظون مائة الف درهم حقيقيه دقاتي، وبقية الدهر مائة الف درهم حقيقيه دقاتي.

وهذا البلد الذي تحسرت عليه بناء الشعب العربي من أمثال الجباس الذي تعجبت معاليكم من أن يخلد اسمه على كويستا، بناء العمال والنزاع والمجاهدون وأصاحبه السلاطين ووزراء السلاطين. هذه الكويستا التي نتحدث عنها هي سلفة ثل البازين المقابل لثل الحمراء. في حى البازين عاش الذين بنوا حضارة الأندلس، وفي قصور الحمراء عاش الذين أضاعوها.

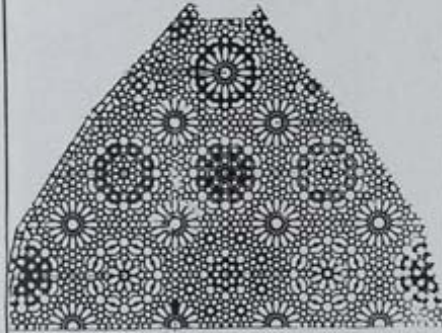
لقد رأيت معاليك مدامتة يد صانع فان عرق عندما صاغ درة سلف فارس، أتدري من الذى أضاع هذه الدررة وغرناطة كلها؟

سلطان يسمى أبو الحسن على بن سعد هو التاسع عشر من سلسلة ملوك بني نصر. هذا الرجل كان متزوجا من سيدة عربية كريمة تسمى عائشة. أحب منها ولدا اسمه أبا عبد الله محمد، ثم زاعجت عينه وراه متساءة أندلسية نصرانية تسمى إيزابلا، فتزوجها على كبر وأنجب منها غلاما، وقام النزاع بين عائشة وإيزابلا التي أسلمت وتسمت لريا وطال الصراع بين ابن عائشة وابن لريا بينا كان فرناندو وإيزابلا يقتربان من غرناطة بغير إشها، في أثناء النزاع وقع أبو عبد الله بن لريا أسيرا في يد النصراني وتولى مكانه عمه محمد بن سعد الملقب بالزغل أي الشجاع، فصلى للاسبان، وهنا أطلق الأسبان أبا عبد الله بن لريا بحبس من جندهم، فغلب عمه وتولى مكانه ثم لم يلبث محمد ابن لريا أن أسلم غرناطة للملكين فرناندو وإيزابلا في ٢ يناير ١٤٩٢، ولما هو ووزراؤه إلى وادى أش شال غرناطة، ثم ذهب إلى المغرب حيث انتهت أيامه.

— وما شأن الوزراء هنا؟ — هؤلاء الأمراء الذين حدثك عنهم كانوا شيانا دون الخامسة والعشرين، ولكن التدبير كله كان بيد الوزراء، ومأساة شياع غرناطة لايسأل عنها الأمراء بل الوزراء، بالقبض كما كانت مأساة الأمين والمأمون نتيجة الصراع بين الفضل بين ربيع وزير الأمين والفضل بين سهل وزير المأمون. حل تعرف مثلا بامعالي الوزير أن الأمين والمأمون يتكاثرا، شابين في الحادية والعشرين عندما قامت الحرب بينهما وأن فرق رأس بينهما لم يزد على سنة شهرين.

ومن غرناطة غطى إلى قرطبة وفي قرطبة أنا في بيني وبين هناك مظهر صغير في حارة خفية أرى منها باب جامع قرطبة. في هذا المظهر واسع لامتكتا، أي المسجد أجلس وحدي وعنى على باب المسجد ودعنى يسبح مع المصطفى حيث قرأني وأهل بيني. قرأني هناك كلهم فقهاء وعلماء وكتاب وشعراء. يقدون معاوية بن صالح أول الكبار من فقهاء الأندلس، وينبون بأبي عبد الله الجلسي آخر إمام لمسجد قرطبة، وهو الذى أقام آخر صلاة جمعة في المسجد الجامع هناك قبل سقوط البلد في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦.

ويسألونك عن الأندلس..



جانب من سقف قاعة السفراء ترى فيه الوحدات الزخرفية بصورة واضحة تساعد على فهم معراها.

لنقص طويلة وحزينة كأنها لحن جنازى
فعد العز الذي كانت فيه أهلكها الحرب الأهلية . ونداءها أبدي
حكاه صعايك حتى كانت سنة ٦٣٠ هجرية ١٢٣٦ ميلادية في ذلك
الحين وقت قرطبة عزلاء لا ينجب إلا أهلها
كانت داخلية في دولة معمار الخاق يسمى سيف الدولة بن هود
ولقب نفسه بالموكل على الله
واقترع جيوش فرناندو الثالث ملك قشتالة من قرطبة . ووقفت بعدها
عنها كان الملك القشتالي مترددا . فلقد كان يحسب أن في العرب
أسودا . وهذه قرطبة أم بلاد الدنيا . فكيف يحسرها !!
وأقبل الموكل بن هود ووقف عيونه على ٣٠ كيل مترا من قرطبة كان
معه ثلاثون ألفا مابين فارس وراجل . ولم تقدم بهم لدخل البلد وانفقد
وربما تنقل هذا العمل من صعلوك إلى بطل . ولكنه لم يكن يستحق هذا
الشرف . أتت عليه نفسه الحسبية أن يقوم بعمل عظيم . وكان أهل
قرطبة يستصعرونه . ولكن هذا الإنسان الخفير خاف على نفسه . فأمر
رجاله بترك قرطبة لصيرها الأسيف وعاد إلى قاعدته في مدينة المرية
ودخل فرناندو الثالث قرطبة دون حرب وانتقلت من دار الإسلام
والسلام إلى دار الحرب والقتال
وعاد الموكل إلى بلده المرية كان له وزير وبالب عنه هناك يسمى عبد
الله البرمسي . وكان استودع ويزره هذا امرأة حلوكة كان يحبها ترك
التعبس قرطبة ليسرع إلى امرأت
في حينه كان عبد الله البرمسي قد أغرى المرأة وحازها لنفسه . وعندما
عاد الفقيه الوزير مع المرأة وقلاه عفا . وألقا جثته من أعلى حصن
المرية
والرجل الذي ضمن على نفسه بالموت في ميدان الشرف مات ميتة
الكلاب . وأبشى في بطون أملاك خليج المرية

ساعة الغداء أدخل مطعما في شارع أماردوردي لوس ريوس إلى
جانب المسجد . فأجابا بمعاى الوزير وشهرة اللذين هربت
منها في غرناطة لامر من الخلويس معها
كانا ينتظران الطعام وأمامهما إبريق من السد الأحمر ول يد كل منها
كوب قل أن يردا السلام قلت
- لابد أن الساعة التي لليلك مازالت مستمرة
فقال الوزير ليصرف النظر عن إبريق أي نواب الذي أمامه وقال
- إنا نتحدث عن ملوك الطوائف . كيف بلغت بهم العظيمة الاتحادا
لنيزاد عن بلادهم

- ياسيدي الوزير لماذا نلوم الأندلسيين وحدهم ؟ إن تاريخنا كله عصر
طوائف . وكل حكامنا في الماضي ملوك طوائف . لأعمل في إلا حرب
بعضهم مع بعض . منذ قشة عثان بن عفان ونحن في حرب أهلية
مستمرة بين ملوك الإسلام كل منا يشعر وكأن شيئا من دم عثان على
بذبه . عندما جلس معاوية ابن أبي سفيان في مقعد الصديق أي بكر
انتهت الصلة بين الحاكم والحكوم في عالم الإسلام . الأمة جمعت حول
قرآنها ورسولها وأبي بكر وعمر . والملك ركوا عربة قيصر وجلسوا على

ول هذا المنهج أجد نفس مع لطائف هزوا الدنيا . رجاء حرب
وسياسة وفكر وشعر . عبد الرحمن الداخل ذلك الفتي العجيب الذي
انقض كالصقر من السماء على أرض أندلس وحقق مرة أخرى وفي محالبه
شبه الجزيرة كله . هذا صقر قرطبة . هل تعرف أنه شاعر . وشاعر عظيم
أيضا ؟ كل عابرة العرب شعراء . القصيدة الكبرى التي نظمها عبد
الرحمن بن معاوية الداخل هي إمارة قرطبة . هذا الفتي الشويب أمام
بذراعه ملكا واسعا . وجعل من معسكر روماني قديم يسمى كوردوبا
جوهرة اسمها قرطبة ترين الدنيا

وآخر العظماء من أهل قرطبة هو أبو محمد علي بن حزم . رعا
كان هذا الرجل أعلم علماء العربية على الإطلاق . حتى
الفارابي وابن سينا وابن رشد لم تكن لهم سعة علمه كسعة مئات .
ولكن أعظم ما فيه كان قلبه الحلي النابض . هذا الرجل كان إسبانيا
دون شك . ولكنه يقول إنه من أرومة عربية خالصة . وابن سنام
في الذخيرة . يقول إن أصله فارسي . ولكن قلبه وذنه ولسانه
كانت كلها عربية . كان فخورا بالعروبة بلا حدود . وكان مؤمنا
بالإسلام في عمق دون حدود أيضا . وكان متزهوا باندلسيته
إنه أسطورة . في سن العشرين دخل مسجد قرطبة ليعمل فلم يعرف
كيف يصل وشعر بالخلل . فاقبل يدرس الإسلام . وفي سن الستين لم
يكن في عالم العرب من يقاضيه علما بالإسلام وحضارته وثقافته .
وعرف العرب كما لم يعرفهم أحد قبله ولا بعده . اقرأ - جبهة أساب
العرب . من تأليف ترمعجب . إن العرب جميعا أسرته وأهله . وهو
يعرف من تزوج من . وكما ولدا أنبيا ويقول لك إن الولد الثاني أصبح
قاضيًا في خراسان . وأخته ثلاثة تزوجت القاضي فلان في المدينة
المشرفة !

وأنتهى لأزور المسجد الجامع . أكبر وأجمل مسجد بني في تاريخ
الإسلام بناء على مدى ثلاثمائة سنة نسمة أمراء وخلفاء . كل منهم وضع
إضافة على الجزء الذي بناه . إنه سيفونية معارية كانت أنعمها بجناب
أوروبا كلها أيام عبد الرحمن الناصر . هذا الخليفة العجيد الذي كسب
الحرب أولا . فلما أعاد الوحدة لبلاده غاض معركة السلام . وأصبح
وهو في الخامسة والستين من عمره شيخ إسبانيا والبرتغال معا . في بلاطه
اجتمع أهل الأندلس المسلمون وملوك أسبانيا النصرانية
يجلس في عمار المسجد . اقتراب الوحيد الذي أنشأ في هيئة
حجرة من الرخام والمرمر . هنا كانوا يضعون مصحف عثمان الشهيد ذي
التورين يوم الجمعة . وبعد الصلاة يرفعونه ويحفظونه في القصور . نحن
هنا في خبلة من أعمدة الرخام والأقواس المزدوجة ويقض النور الداخل
من قريات القبة . القبة (بكسر القاف) هي النافذة الصغيرة أو عاكفة
النور في قواعد قباب المساجد . سموها قبة لأن الحمام القمري يسكن
عندها ويسبح لله سبحانه بترجمته الشجي . في القرآن الكريم ذكر كثير
للطير الصافات التي تسبح لله سبحانه : « ألم تر أن الله يسبح له من في
السموات والأرض » . والطير صافات كل قد علم صلاته ونسبحه
« ألم يروا إلى الطير فوقهم صافات . هذه هي الطير الصافات ؟ إنها
الحمام الذي يسبح لله عند القمرات هنا أعمدة من الرخام في دقة
الأقلام تحمل أقواسا قرطبة . هنا ولد الفن الطوطي كله . نلوه عا
ولسبكه إلى القوط . وما للقوط ناقة ولا جمل . ما أكثر ماسر من
العرب . هذا الأندلس كله سرق منهم . ليس في التاريخ شعب يبى
مجده بدمائه ثم ضيعه وقعد يكيه بدموعه مثل العرب . قارن بين الصورة
التي ترون القلب التي دخل بها عمر بن الخطاب القدس . والصورة
التي صاحت بها منا في أيامنا هذه . ونحن كما نطوق ثلاثمائة ميلين
عري .

وعلى ذكر ضياع القدس . أتعرف كيف ضاعت قرطبة
هذه ؟ قرطبة زودة بلاد أوروبا في القرن العاشر
الميلادي التي وصل نورها إلى قلب ألمانيا . وصنع بها راهب ألماني
يسمى « يوحنا الخنزيري » . فخرج من خلونه في وسط ألمانيا .

وسار على قدميه نحو الثور حتى وصل قرطبة . وإمام بابا المسي
باب الصورة قال . باللاتينية Ave Luc Cordubar . ساما
بالنور قرطبة

أتعرف كيف خرجت من بدنا وانتقلت إلى عالم الغرب المسيحي

عرش كسرى وعادوا إلى عصور الجاهلية . عندما قتل معاوية بن أبي
سفيان الرجل الشهم حجر بن عدى لأنه أن أن سكبت على شتم على بن
أبي طالب على المنابر . قال شيخ حكيم : والله لا تزال العرب تنقل بعد
ذلك أبدا . عندما قتلوا الحسين بن علي عند كربلاء . وقت رجل صالح
على باب قصر يزيد بن معاوية وصاح : يادار . فبك من كل دار جعل
الله منك في كل دار . لاندخلوا قصر الحبار . لأنه قطعة من النار .
أرادوا قله فصاح بهم إنسان . دعوه فهو محزون . وتركوه لأنه محزون .
من ذلك اليوم يقول أصحاب السلطان إن كل ناطق بالحق محزون . وكل
الناس في الماضي كان عليهم أن يدعوا المحزون لكي يستطيعوا أن يفلتوا
الحق

إن عالم الإسلام الواحد بإصحاب المعالي صحتة الأمة وحدها لأن
الملك لم يكن لهم عمل إلا تخريب دار الإسلام . تصور أنه لم يحدث مرة
واحدة أن زار ملك مسلم ملكا مسلما آخر خلال العصور الوسطى كلها
لأنه لو زاره لم يخرج من عنده حيا . كلهم كانوا ملوك طوائف . واقتربوا
من الحياتيات في حق الأمة مالا يوصف . بعد أن استرجعت أمة الإسلام
القدس الشريف بقيادة صلاح الدين جاء ابن أخيه الملك الكامل
وتنازل لفرديريك بارباروسا عن القدس . هذا السلطان الصعلوك نزع
بالقدس الشريف للملك الأتاعي . كان القدس ملك أيه لكي يسلم له
عرشه كان ذلك سنة ١٢٢٩ . كان على الأمة أن تحارب من جديد
لنصرة القدس . وتم ذلك سنة ١٢٤٤ .

لو يعلم الناس كم حارب المسلمون في سبيل القدس ! لقد
سقطت القدس في يد الصليبيين سنة ١٠٩٩ واستشهد يومها من
المسلمين سبعون ألفا . لقد غاض الإفراج في دماء المسلمين أهل
القدس حقيقة لا محازا .

ظلنا نحارب بعد ذلك ١٥٠ سنة لكي تكون القدس لنا بصورة
نهائية . ثم يقول الأعداء إن القدس لهم إلى الأبد !!

هذا يامعالي الوزير بعض ماضيه بنا ملوك الطوائف
بالألمس .

والنظر حولك اليوم في عالم العرب فهل ترى غير ملوك طوائف ؟
مازال المعتمد بن عباد يجرب ابن الألفس في كل مكان من
عالم العرب . إن عالم العرب كله أندلس ياسيدي الوزير . وقصود
مأساة الأندلس تتكرر كل يوم فلماذا نتعجب من أمر الأندلسيين
وحدهم ؟

هل تذكر ابن حزم ؟ هذا الرجل الذي تولى الوزارة يوما اضطر
إلى أن يتنحل عن الدنيا لكي يستطيع أن يخدم أمة الإسلام بعلمه
وفي قرية صغيرة تسمى مت ليشم قرب ولة في جنوب غربي أسبانيا
نق الرجل نفسه . ليقرأ ويشرح ويكتب ويقول الحق دون أن
يسمعه الملوك كذلك نق الغزالي نفسه لكي يكتب « إحياء علوم
الدين » .

لقد ذكرت في مطلع كلامي هذا عازف الكمان لأهل اخبة على
ضوء الشموع في مطاعم البندقية .

الآن استرح في مقعدك وأرسل نفسك على سجينات لأنني سأعرف
على صعلك قطعة الأندلس . الكلمات هنا لأحمد شوقي . واللحن
لأمة العرب كلها :

آخر العهد بالجزيرة كانت
بعد عرك من الزمان وخرس
فتراسا تقول راية جيش
باد بالألمس بين أسر وحس
ومستأجبيها مساليد ملك
باعها الوارث المضيغ يخس
خرج القوم في كتاب صم
عن حفاظ . كموكب الدفن عرس
ركبوا بالسحار نعشا . وكانت
تحت آياتهم هي العرش أنس !